﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أرشد اللهُ العبادَ إِلَى الافتتاح بِاسْمِه سُبحانه إقرَارًا باسْتِحْقَاقه العبادةَ، وبيانًا لِسَعَةِ رحمتِه؛ أَرْشَدَهم إلى حَمْدِه ﷻ الـمُسْتَحَقِّ له والثّناء عليه بما هُو أهلُهُ، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، "ولَمَّا رأى العبدُ نِعَمَ اللهِ تعالى على غَيْرِه واضحةً كما شاهَد آثارَها على نفسه؛ عرف أنَّه تعالى ربُّ الخلائِق أجمعين، فقال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾"[1].

وهذه الآيةُ والتي قَبْلَها كلاهُما اشْتملَ على الاسْمِ الأَحْسَنِ: ﴿ٱللَّهِ﴾، وكلاهما اشتَمَلَ على ذِكْرِ مَحَاسِنِ المعبودِ بحقٍّ، وهُوَ حقيقةُ الحمد -كمَا سَيَأْتِي-، فَكِلَاهُمَا مُشْتَمِلٌ على حَمْدِ اللهِ تعالَى.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾: ضدُّ الذّمِّ[2]، وهو: "الثَّناء باللِّسان على الجميل، سَوَاءٌ تعلَّق بالفضائل كالعلم، أم بالفَوَاضِل كالبِرِّ"[3]، أي: سواءٌ تعلَّق بالجميل اللَّازِم أو المتعدِّي.

وغالب مَنْ عَرَّف الحَمْدَ جعَلَ (الثَّناءَ) جِنسًا في الحدِّ[4]، وهذا فِيهِ نَظَرٌ؛ إِذْ ثَبتَ عن أفصح العربِ ﷺ إثباتُ التَّغايُرِ بينَ الحمد والثَّناء، وذلك فيما يرويه عَنْ ربِّه تبارك وتعالى أنَّه قال: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي» الحديثَ[5]، فغايَرَ بينهُمَا.

ومِنْ أصحِّ ما قيل في معناه ما قال ابْنُ سِيدَهْ: "الحَمد هو الوَصْفُ بالجميل على جهةِ التَّفضيلِ"[6].

---

(1) بسَّام عليان، سورة الفاتحة دراسةٌ موضوعيَّة، رسالة ماجستير، ص: 31.
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (حمد).
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 201.
(4) الخليل، العَين: (حمد)، والأنباريّ، الزّاهر: 2/78.
(5) رواه مسلم: حديث رقم: (395).
(6) ابنُ سِيدَهْ، المُخصَّص: 5/231-232.

وقريبٌ منه ما قرَّره تقيُّ الدِّين ابنُ تيميَّة مِنَ أنَّ الحمدَ: الإخبارُ بمحاسِنِ المحمودِ معَ المحبَّةِ له[1].

فالحَمْدُ: إخبارٌ عن محاسن المحمود مع حبِّه وإجلاله وتعظيمه، ويكون بالقلبِ وباللسان.

والمعنى في الآية: الثناءُ على اللّه بصفاتِه التي كلُّها أوصافُ كمالٍ، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية.

2) ﴿رَبِّ﴾: هو في الأصل مصدر بمعنى: التربيَّة، ثُمَّ استُعْمِلَ وَصْفًا لقَصْدِ المبالغة، كقولهم: فُلَانٌ عَدْلٌ[2].

ولَهُ معانٍ مُتَكَاثِرَةٌ، مِنْهَا:

المالِكُ؛ فَرَبُّ الشَّيْءِ مَالِكُهُ.

والسَّيِّد المُطَاعُ، كما قال اللّه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31] أَي: سادةً مُطَاعِين[3].

والمُصْلِحُ، يقال: رَبَّ الشَّيءَ؛ إذَا أَصْلَحَه[4].

والمُدَبِّرُ، ومِنْهُ سُمِّي الرَّبَّانيُّون بهذا الاسم؛ لقِيَامِهِم بتَدْبِير أُمُورِ النَّاس[5].

والقيِّمُ، والمُنْعِمُ، والمُرَبِّي، وَالمُتَمِّمُ[6].

والمُرَبِّي والمُتمِّم مُتَلَازِمَان؛ إذْ معنى التَّربِيَة: أنَّهَا "إنْشَاءُ الشَّيْءِ حالًا فحالًا إلى حَدِّ التَّمام"[7].

ولا يُطْلَقُ مُعَرَّفًا بأل إلَّا عَلَى اللّهِ تعالى، وأمَّا بالإضافَةِ فَبِحَسَبِ ما أُضيف إلَيْهِ[8].

(1) ابنُ تيميَّة، مجموع الفتاوى: 6/259.
(2) محمّد بن الطيّب الفاسّي، تحرير الرِّواية في تقرير الكفاية، ص: 42.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 186.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ربّ).
(5) نَشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (باب الراء وما بعدها من الحروف في المضاعف).
(6) الأنباريّ، الزّاهر، ص: 467، والزَّبيدي، تاج العَرُوس: (ربب)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ربب - ربرب).
(7) الرّاغب، المفردات: (ربّ).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (ربب).

3) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: جَمْعُ (عَالَم)، والمراد بالعالَمين: أصنافُ الخلائق[1].

وهو مشتقٌّ مِنَ العِلْم أو العَلَامَة[2]:

فأمَّا اشتقاقُهُ مِنَ العِلْم؛ فهو جَارٍ على مَن يَخُصُّ العالمين بالعُقَلاء.

وأمَّا اشتقَاقُه مِنَ العَلَامة؛ فلِأَنَّ المخلوقَ عَلَامةٌ على وجودِ خالقِه.

والثَّاني أَعَمُّ.

فدلَّت الآيةُ على انفراد اللّه تعالى بالخَلْق والتدبير، والإنعام، وكمالِ الغِنى، وعلى تمامِ فَقْر جميعِ أنواع المخلوقات إليه، من كلِّ وجهٍ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كلُّ أصناف المحامدِ مِنَ الفضائِلِ والفَوَاضِل مُسْتَحَقَّةٌ للّه تعالى وَحْدَه؛ لأَنَّهُ ربُّ الخلائقِ جميعِهم، مَنْ يَعقِلُ مِنْهُمْ ومَنْ لا يَعْقِلُ، فهو مالكُهُمْ ومدبِّرُ شُؤُونهم، ومُرَبِّيهم بالنِّعَم، ومُرَبِّي خواصِّ خلقِهِ بتَوْفِيقِهم لكلِّ خيرٍ وعِصْمَتِهم من كُلِّ شَرٍّ[3].

وفي الآية إخبار من اللّه سُبحانَه بحمده نفْسَه؛ لِيُعلِّمَ عِبادَه كيف يحمدونه بقلوبهم وألسنتهم، مع حبِّهم وإجلالهم وتعظيمهم له، على كلِّ حالٍ.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيّ وَالْبَلَاغِيّ:

مذاهبُ العلماء في معاني (أل):

الحامِدُ كُلُّها لله، وما مِن خَيْرٍ إلاّ هو مُوليه، وما مِن نِعمةٍ إلاّ هو مُتفضّلٌ بها

قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾، في دلالة (أل) خلافٌ بين العلماء على أربعة أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّها لِلاستغراق، وهو الأرجح، وقد اختاره جماعة مِنْ أهل العلم، مِنْهُمُ ابنُ عَطِيَّة الأندلسيُّ[4].

والثَّاني: أنَّها لتعريف الجِنْس، ومال إليه الزَّمخشريُّ، وجعلَ الأوَّلَ وَهمًا؛ فقال: "وَالِاسْتغراقُ الذي يتوَهَّمُه كثيرٌ مِنَ النَّاس وَهْمٌ مِنْهُمْ"[5].

---

(1) العُلَيْمِيّ، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 1/42.

(2) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 1/489-490.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/135، السعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 39.

(4) ابن عطيَّة، المحرَّرُ الوجيز: 1/66.

(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/10.

وهذهِ المسألةُ مِنْ دقائق قضايا البلاغة التِي تُبْطِنُ اعتزَالًا[1]، وقَدْ فات ابنَ المُنَيِّرِ التَّنبيهُ عَلَيْهَا، قال ابنُ تيميَّةَ الحفيدُ: "الحمدُ إذا كان للجِنْسِ أوجَبَ أن يكون لغيره أفرادٌ مِن أفراد هذا الجنسِ، كما تقُولُه القَدَرِيَّة، وأمَّا أهل السُّنَّة فيقولُونَ: الحمدُ للّه كُلُّهُ"[2].

والثَّالث: أنَّها لِلعَهْدِ، على معنى أنَّهُ "الحمدُ الذي حَمِدَ به نفسَه وحَمِدَهُ به أولياؤُه"[3]، والعِبْرَةُ بِحَمْدِ مَنْ ذُكِر، فَلا فَرْدَ مِنْهُ لِغيْرِه[4].

والرَّابع: أنَّها لِلكَمَالِ، وهو مُخرَّجٌ على كلامٍ لِسِيبَوَيْهِ في (أل) الداخلةِ على الصِّفات[5].

والقولُ الأوَّل أصَحُّ -كما سبق-، وقد ذكر السُّيوطِيُّ أنَّه قول المُحَقِّقين[6].

قال البَيْضَاوِيُّ في وجه الاِسْتِغراق: "إذِ الحمدُ في الحقيقة كُلُّهُ له؛ إذْ ما مِن خير إلاَّ وهو مُولِيهِ بِوَسَطٍ أو بِغَيْرِ وَسَطٍ"[7].

الحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ وَالمَدْحِ

واخْتِيرَ الحَمْدُ دونَ الشُّكْرِ؛ لكون الحَمْدِ يعُمُّ الفضائلَ والفواضِلَ، بخلاف الشُّكْرِ؛ فإنَّه خاصٌّ بالفواضل، فأُوثِرَ اللَّفظ الأَعَمُّ.

وعُبِّر بالحَمْدِ دون المَدْحِ، مع أنَّ المدحَ أَعَمُّ؛ لكونِهِ عاريًا عَنِ المحبَّة والتَّعظيم، حتَّى زعمَ بعضُ أهل العلم أنَّ المدحَ لا يُطلق على اللّهِ تعالى[8]، والأَدْخَلُ في الثَّنَاءِ أن يَصْحَبَ ذكرَ صفات الكمالِ: حبٌّ وتعظيمٌ.

---

(1) وللسُّيوطيِّ توجيهٌ لكلام الزَّمخشريِّ، ينظر: نَواهِد الأبكار 1/169-170، حيث أنكر أن يكونَ مُرَادُ الزمخشريِّ مَبْنِيًّا على مسألة خَلْقِ أفعال العبادِ، إلَّا أنَّ كلام الزمخشريِّ في الكشَّافِ كالصَّريح في خلافِ ما قرَّره السُّيوطيُّ؛ لأنَّ تعريف الجنس يُنَافِي الاستغراقَ، كما بيَّنه الواحديُّ في التَّفسير البسيط: 1/482، والله أعلم.

(2) أحمد ابن تيميَّة، قاعدة حسنة في الباقيات الصَّالحات، تح: أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السَّلف، ط1، 1422، ص: 42.

(3) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 1/482-483.

(4) الشِّربِيني، السِّراج المُنِير: 1/8.

(5) الخطيب الشِّربيني، السِّراج المنير: 1/8.

(6) السُّيوطي، نواهد الأبكار: 1/164.

(7) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/27.

(8) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/32.

وفي صحيح البخاريّ 4634، وصحيح مسلم 1499، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لاَ شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللَّه».

دلالـة الجُمْلَة الاسميّة على أنَّ الحَمْدَ مُستَحَقٌّ لله تعالى، وعلى اسْتِغْراق جَميعِ المَحامِد، وعلى حَـمْـد جـميـع الـحـامـديـن، وعـلـى الـثّـبـوت والدَّوام

إيثارُ التَّعْبيرِ بِجُمْلَةِ الحَمْدِ الاِسْمِيَّةِ دُونَ الفِعْلِيَّةِ:

قولُه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جُملةٌ اسميةٌ، وأُوثِرَت على الجُمْلة الفِعْلِيَّة (أحمدُ الله)؛ لوجوهٍ[1]:

أَحَدها: أَنَّ (أَحْمَدُ الله) يُوهِمُ أَنَّ قائلَهَا قادرٌ على تَوْفِيَةِ الحَمْدِ حقَّهُ، بخلافِ (الحَمْدُ لله)؛ فإنه يُفيد استحقاق اللهِ تعالى للحَمْدِ قَبْلَ حَمْدِ الخلقِ له.

ثَانيهَا: إذا قَالَ: (أَحْمَدُ الله)، كَانَ قَدْ حَمِدَ اللهُ نفسَهُ على طريقة الالتفات -في مذهب السَّكَّاكيّ-؛ "وإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ فقد دخَلَ فيه حَمْدُهُ وحَمْدُ غيرِه جميعًا مِن لَدُنْ خَلْقِ العالم إلى انتهاء دخول أهل الجنَّةِ الجنَّةَ ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾"[2].

ثَالثها: أنَّ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ دالَّةٌ على استحقاق اللهِ ﷻ لِلحَمْدِ، بخلاف (أَحْمَدُ الله)؛ فَلَا يَدُلُّ على ذلك، واللَّفظ الدَّال على استحقاق الله لِلحَمْدِ مُقَدَّمٌ على اللَّفْظِ الدالِّ على حَمْدِ فَرْدٍ له.

رابعها: أنَّ (أَحْمَدُ الله) إخبارٌ مِنَ العَبْدِ بأَنَّهُ حَامِدٌ[3]، وحقيقةُ الحمد -كما سَلَف- مُقْتَرِنٌ بالتَّعظيم، فالمُتَلفِّظ بـ(أحمد الله) مُدَّعٍ أنَّ قلبَهُ مُعَظِّمٌ لله تعالى، فإنْ كان غافلًا عِنْدَ التَّلفُّظِ؛ كان في كلامه نَوْعُ كَذِبٍ، بخلاف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فهو صِدق بكُلِّ حالٍ.

خامسها: أنَّ في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مِنَ الاِسْتِغْراق لأنواع المحامد ما لَيْسَ في (أحمد الله).

سادسها: أنَّ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ اسميَّة، وهي دالَّة على الثُّبوت والاستمرار بالقرائن، بخلاف (أحمد الله) فإنَّها جملة فعليَّة تَدُلُّ على التَّجدُّدِ والحدوثِ، والثُّبوتُ والاستمرارُ أنسَبُ في مقام الثَّناءِ.

سابعها: أنَّ في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعليمًا للحَمْدِ مع التّعريضِ بِالاِسْتِغْنَاءِ عن الخلقِ؛ أي: الحمد لله وإن لَمْ يَحْمَدْهُ أحدٌ[4].

---

(1) الرَّازيّ، التّفسير الكبير: 1/191.

(2) السُّيوطي، نواهد الأبكار: 1/166.

(3) إذا قدَّرنا أوَّل السُّورة: (قُولُوا)، وإلا فالوجه الثاني هو المرادُ، ولا مانع مِنَ الجمع بينَهُما بضَرْبٍ من ضُروبِ التَّأويلِ السَّائغِ القَرِيبِ.

(4) ابن عَجِيبة، البحر المديد: 1/53.

جملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ بَيْنَ الخبرِ والإنشَاءِ:

اسْتِحْقَاقُ اللهِ الحَمْدَ قَبْلَ أَنْ يَحْمَدَهُ الحَامِدُونَ

جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ خبريةٌ في اللَّفظ، إنشائيَّةٌ في المعنى؛ وذلك "لحصول الحمد بالتَّكلُّم بها مع الإذْعَان لمَدْلُولها"[1]، والقولُ بأنَّها خبرٌ لفظًا ومعنًى أبلَغُ؛ لأنَّ القول بالإنشائيَّةِ يلزَمُ منه أنَّ الحَمْدَ يقعُ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّفْظِ، بخلاف القولِ بالخبريَّةِ؛ فإنَّ مقتضَاه أنَّ الحَمْدَ واقعٌ قَبْلُ، ومُؤدَّى الخَبَريَّةِ إنشاءٌ، بخلافِ العكسِ.

وهذا كُلُّهُ إذا نظرنا إلى جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ في ذاتِهَا، دون النَّظر إلى تقدير فِعْلٍ قَبْلَهَا هو (قُولُوا)، كما سبق نظيرُه في الكلام عَنِ البسملة.

دلالة الاسميّة على ثُبُوت الحَمْدِ وَاسْتِقْرَاره:

وقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ برفع ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ على الابتداء، ولم يُنصَبْ كما هو غالب سَنَنِ العرب في كلامها مِن نَصْبِ جملةٍ مِنَ المصادِرِ بأفعالٍ مُضمَرةٍ، ونُكتةُ هذا العدولِ: الدّلالة على استقرارِ هذَا المعنى وثباتِه[2].

أقوالُ العُلماء في معاني اللّام الدَّاخلةِ على لفظِ الجَلالةِ:

الحمدُ مُستَحَقٌّ لِلَّهِ، ومُختصٌّ بِهِ

واللَّامُ في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ لِلاسْتِحْقَاق، وقيل: لِلمِلْكِ، وقيل: لِلاختصاصِ[3]، ولها وجْهٌ صناعيٌّ وهو أنْ تكونَ للتَّقويةِ.

ووَجْهُ حَمْلِهَا على المِلْكِ: أنَّه سبحانه خالقٌ لكلِّ مَنْ نَطَقَ بالحَمْدِ، فكان مالكًا له؛ إذِ الخَالقُ مالكٌ[4].

ووجه الاختصاص: أنَّ له بكُلِّ المحامدِ اختصَاصًا[5]، "ثُمَّ هَذَا الاخْتِصَاصُ اخْتِصَاصٌ ادِّعَائِيٌّ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْقَصْرِ الادِّعَائِيِّ لِلْمُبَالَغَةِ"[6].

(1) السَّربينيّ، السّراج المنير: 1/8.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/9.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 1/483، والقِنَّوجي، فتح البيان: 11/161.
(4) القِنَّوجي، فتح البيان: 11/161.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/160.
(6) القِنَّوجي، فتح البيان: 11/161.

وكونُ اللام للاستحقاقِ هو الأَشْبَهُ بالقواعد، ولهذا اقْتَصَر عليه أبو حَيَّان[1]؛ فإنَّ لامَ الاسْتِحْقَاقِ هِي الواقِعَة بَين مَعْنًى وَذَاتٍ[2]، كما هُهُنَا.

وكونُها للتَّقوية على اعتبارِ أنَّها "قَوَّتْ تَعَلُّقَ الْعَامِلِ بِالْمَفْعُولِ لِضَعْفِ الْعَامِلِ بِالْفَرْعِيَّةِ وَزَادَهُ التَّعْرِيفُ بِاللَّامِ ضَعْفًا لِأَنَّهُ أَبْعَدَ شَبَهَهُ بِالْأَفْعَالِ"[3].

من بلاغةِ إظْهارِ لَفْظِ الجَلالةِ دونَ إضمارِه:

ذِكْـرُ اسْـمِ اللهِ تَـعَـالَى تَـلَـذُّذٌ وَتَبَرُّكٌ

في قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عُدُولٌ عن مقتضى الظَّاهر؛ إذْ هذه الآيةُ جاءت بعد قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فتقدَّم ذكرُ اسْمِهِ تعالى في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، فكان مقتضى الظَّاهر أَنْ يُقَالَ: (الحَمْدُ لَهُ)؛ ففي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إظهارٌ في مَقَامِ الْإِضْمَارِ[4].

ونُكْتَةُ الإظْهَار هُنَا: التَّلَذُّذُ والتَّبَرُّكُ بذِكْرِ اللهِ تعالى باسْمِهِ الصَّريح دون الضَّمير الرَّاجِعِ لَهُ، واللهُ أعلمُ.

وقد ذَكَر البِقَاعِيُّ نظيرَه عند قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: 57]: "وأَظْهَرَ ولم يُضْمِر؛ إظهارًا للتَّعظيم وتلذُّذا بذِكْرِ الاسْمِ الشَّريف، فَقَالَ: (اللهُ)"[5]؛ إذْ إنَّ مُقْتَضى الظَّاهر: لَوْ أنَّه هداني؛ لأَنَّهُ سبق ذِكْرُه باسمه الصَّريح في الآيةِ قبلَهَا في قولِهِ: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 56].

الفرقُ بين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾:

مَطْلَعُ الفاتحة يُعلِّمُ العبادَ كيفيَّةَ الحَمْد والثّناء على الله بما هو أهلُهُ

وجاء هُنا قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وفي سُورةِ الجَاثية: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: 36]؛ لِأَنَّ مِنْ مُرَادَاتِ آية الفاتحة تعليمَ العبادِ الحَمْدَ، فلا وَجْهَ لإيرادِ الكلام على جهةِ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/34.
(2) ابن هشام، مغني اللَّبيب، ص: 275.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 11/161.
(4) الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 1/135.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 16/539.

القَصْرِ، بخلافِ آية الجَاثِيَة؛ فإنَّها جاءت "على تقدير الجواب بَعْدَ إِرْغَام المُكَذِّب وقَهْرِه ووقوع الأمر مُطابقا لإخبار الرُّسُل عليهم السلام، وظهور ما كذَّب الجاحدُ به، فعند وضوح الأمر كَأَنْ قَدْ قِيل: لِمَنِ الحَمْدُ ومَنْ أَهْلُه؟ فكان الجوابُ على ذلك، فقيل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ [الجاثية: 36]، نظيرُ هَذَا قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ ثُمَّ قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]"[1].

دلالة اسم (اللهِ) عَلَى صِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ والكمال، ولَوْ عُلِّقَ الحمدُ باسمٍ آخرَ لأَوْهَمَ التّعليقُ اختصاصَ الحمد بذلك الاسم

سِرُّ تَعْليق الحَمْدِ بلفظ الجلالة:

اخْتِير الاسمُ الأَحْسَنُ ﴿ٱللَّهِ﴾ مع الحَمْدِ دون غيره مِنَ الأسماء؛ لكونِهِ بمفردِهِ دَالًّا على صفات الجلال والجمال والكمال، ولِدلالة ذلك على استحقاقِه الحمدَ لذاته؛ بخلاف ما لَوْ عُلِّقَ الحَمْدُ على غيره مِنَ الأسماء؛ فإنَّهُ قَدْ يُتوهَّم اختصاصُ الحَمْدِ بصفةٍ دُونَ أُخْرَى؛ إِذْ إِنَّ تَعْلِيقَ حُكْمٍ بلفظٍ مُشْتَقٍّ مُشْعِرٌ بِعِلِّيَّةِ مَا مِنْهُ الاشتقاقُ[2].

سِرُّ الْعُدُولِ عَنِ (العَوَالِمِ) إِلَى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

لفظُ (العالَمين) يشملُ جميعَ الأجناس، وفيه تغليبُ العقلاء منهم، ودلالة على العلم والعلامة

وقوله سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، سبق أنَّ العَالَمين: جَمْع (عالَم)، وَ(عَالَمٌ) تُجمَعُ في الأصلِ عَلَى: (عَوَالِمَ)، ولا تُجمع جَمْعَ مذكَّرٍ سالمًا، فَإِذا أُجْرِيَتْ مُجْرَى جمعِ المذكر السالم في الإعراب؛ كانت مُلْحَقَةً به وليست جمعًا على الحقيقة.

وإنَّما لَمْ تُعَدَّ كلمة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمعَ مذكَّرٍ سالمًا حقيقةً؛ لأنَّ مفردَها -وهو عالَمٌ- فَقَدَ شَرْطَ جَمْعِه هذا الجَمْعَ؛ إِذْ إِنَّهُ ليس علَمًا ولا وصفًا، وإنَّما هو مِنْ أسماء الأجناس[3].

فَحَصلَ عُدولٌ في جمع هذه الكلمةِ عَنِ (العوالم) إِلَى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وسوَّغَ هذا العدولَ ثلاثةُ أَوْجُهٍ:

(1) الغَرْنَاطيُّ، مِلاك التَّأْويل: 1/12.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 1/226.
(3) ابن عقيل، شرح ألفيّة ابن مالك: 1/60-61.

أحدُهَا: ما في كلمة (العالَم) مِنْ معنى الوَصْفِيَّة؛ إِذْ هو دالٌّ على معنى العِلْمِ أو العلامَةِ، على ما سبق ذِكْرُه.

ثَانِيهِمَا: أَنَّهُ عُدِلَ إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ تَغْلِيبًا للعقلاء على غَيْرِهِم، وذَكَرَ هذا الوجهَ البيضاويُّ في قوله: "وإنَّما جَمَعَه لِيَشْمَل ما تحته مِنَ الأجناس المختلفة، وغلَّب الْعُقَلَاء مِنْهُمْ، فجمَعَهُ بالياء والنُّون"[1].

ثَالِثُهَا: أَنَّ في جَمْعِ (عَالَم) على (عَالَمِينَ) بَدَلًا من (عَوَالِمَ) عُدُولًا عن جمع الكَثْرَةِ إلى جمع القلَّةِ؛ "تَنْبِيهًا على أنَّهم وإنْ كَثُرُوا فَهُم قَلِيلون في جانبِ عَظَمَتِه تعالى وكِبْرِيَائِه"[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَمْدُ وَالشُّكْرُ:

الحَمْدُ يكونُ في مقابِلِ النِّعمَةِ ويكونُ ابتداءً، والشُّكْرُ لا يكونُ إلا في مُقَابل نِعْمَةٍ

الحَمْدُ هو الشُّكْرُ عند الأَخْفَشِ وجماعةٍ[3]، وفِيه نَظَرٌ، بل بينَهُمَا فرقٌ.

وذهَب الخطابيُّ إلى أنَّ الشّكرَ أعمُّ مُطْلقا مِنَ الحمد، فقال: "الحمد نوعٌ، وَالشُكر جِنْس، فكلُّ حَمْدٍ شُكْرٌ، وليس كُلُّ شُكْرٍ حمدًا"[4]، وعكس الجَوْهَرِيُّ فجعل الحَمْدَ أعمَّ مُطلقا مِنَ الشُّكر[5].

والصَّوابُ أنَّ بين الحمدِ والشُّكْرِ عمومًا وخصوصًا وَجْهِيًّا؛ فالحمدُ أعمُّ مُتَعَلّقًا أخصُّ آلةً، والشُّكْرُ: أخصُّ مُتَعَلَّقًا وأعمُّ آلةً[6].

وذلك أنَّ الحَمْدَ يكون في مقابِلِ النِّعمةِ ويكون ابتداءً، قال الأزهريُّ: "الحمدُ قَدْ يكون شُكْرًا للصَّنِيعة، وَيكون ابْتِدَاءً للثَّناء عَلَى

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/28.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 1/57.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد)، وذكر بِهرام الدَّمِيرِيّ في تحبير المختصر: 1/62، أنه ظاهر قول سيبويه.
وهو ظاهر كلام ابن جرير في تفسيره: 1/138.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد).
(5) الجوهري، الصحاح: (حمد).
(6) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 202، والتَّهَانَوِي، كشّاف اصطلاحات الفنون: 1/541، وحافظ حكمي، معارج القبول: 1/72.

الرَّجُلِ"[1]، بل قد يُحَمْدُ على المُصيبَةِ[2]، وذلك في حَمْدِ اللهِ تعالَى؛ إذْ يكون عَلَى كلِّ حالٍ.

بخلاف الشُّكْر؛ فلا يكون إلا في مُقَابَلِ نِعْمَةٍ، قال في القَامُوسِ: "الشُّكْرُ -بالضَّمِّ-: عِرْفانُ الإِحْسانِ ونَشْرُه، وَلا يَكُونُ إلاَّ عن يَدٍ"[3].

الحَمْدُ يكونُ باللِّسان والقَلْبِ دُون الجوارحِ، والشُّكْرُ يكون بالقلب واللِّسان والجَوارح

فتَحَصَّل مِن هذا أنَّ الحَمْدَ أعمُّ متعلَّقًا مِن الشُّكر.

أمَّا الآلةُ؛ فالحَمْدُ يكون باللِّسان والقلبِ دُون الجوارحِ، كما يُستفادُ هذا مِنْ حَدِّ الحَمْدِ المَعْزُوِّ آنفًا إلى ابْنِ سِيدَهْ وابْنِ تيميَّةَ، بخلاف الشُّكْرِ فَإنَّه يكون بالقلب واللِّسان والجوارح، كما قال الله سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: 13]، فتقرَّر من هذا أَنَّ الشُّكْرَ أعمُّ مِنْ جهة الآلَةِ.

الحَمْدُ وَالمَدْحُ:

الحَمْدُ لا يُسْتَحَقُّ إلَّا على فِعْلِ حَسَنٍ، والمَدْحُ أعمُّ

اخْتَلف العلماءُ في الفَرْقِ بينَهُمَا على أقوال:

ذهب المَاوَرْدِيُّ إلى أنَّ الفرقَ بَيْنَهُما مِنْ جهة أنَّ الحَمْدَ لا يُسْتَحَقُّ إلَّا على فِعْلِ حَسَنٍ، وأمَّا المدحُ فيكون على فِعْلٍ وغير فعلٍ، وبهذا التَّقرير يكون المَدْحُ أعمَّ مِنَ الحَمْدِ مطلقًا.

وفرَّع على هذَا أنَّ الله تعالى يُحْمَدُ على صفاتِ أفعالِه بأنَّه الخالق والرَّازِق ويُمْدَحُ عليها، ولا يجوزُ أَنْ يُحْمَدَ على صِفَاتِ ذاتِه، كَكَوْنِه عالمًا[4].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حمد).

(2) كمَا جاء مِن حديث أبي موسى الأشعريِّ ﷺ أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»، رواه الترمذي، حديث رقم: (1021)، وهو حسن كما في صحيح الجامع الصَّغير: حديث رقم: (795).

(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ص: 419.

(4) المَاوَرْدِيّ، النُّكت والعيون: 1/53-54.

ومَشَى على هذا الرَّاغب الأصفهانيّ[1]، والكرمانيّ[2]، وهو مُؤدَّى كلامِ العسكَريّ[3].

وهذا فيه نظَرٌ بيِّنٌ، لأنّه مخالفٌ لظاهر الاستعمالِ القرآنيِّ، فإنَّ ربَّنا تعالى يقول: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾ [الإسراء: 111].

الحمدَ لا يكون إلا لحيٍّ، ويكونُ بعْدَ الإحسان، ومأمورٌ به مُطلَقًا، وخاصٌّ بفضيلة الإنعام، والمَدحُ غيرُ ذلك

تَفريقُ الرّازي بين الحمد والمَدح:

ذهَب الفخر الرَّازيّ[4] إلى أنَّ الفرقَ بَيْنَهُمَا مِنْ أربعة أوجُهٍ:

أَحَدُهَا: أنَّ الحمدَ لا يكون إلا لحيٍّ، والمدحَ يكون لِلحَيِّ وغيرِه، فقد يَمْدَحُ الإنسانُ جمادًا.

ثَانيها: أنَّ المدح يكون قبلَ الإحسَانِ أو بعدَهُ، والحمدَ لا يكون إلا بَعْدَ إحسانٍ.

ثالثها: أنَّ الحمدَ مأمورٌ به مطلقًا، وأمَّا المدحُ فقد يكون مَذْمُومًا مَنْهِيًّا عنه.

رَابعها: أنَّ المدحَ خاصٌّ بنوعٍ مِنَ الفَضَائِل، أمَّا الحَمْدُ فخاصٌّ بفضيلةِ الإنْعَامِ والإحسانِ، فهو مُخْتَصٌّ بفضيلةٍ بعينِهَا.

وهذه الأوجُهُ -عدَا الأوَّلَ- أشبَهُ بالفرق بين المدح والشُّكْرِ، لا بين المدح والحمدِ، إلَّا أنَّ مذهب الرَّازيِّ أنَّ الحمدَ مُتَعَلِّقٌ بمُطْلَقِ الإنْعَامِ، والشُّكْرَ متعلِّق بالإنعام الواصلِ إلى الشَّاكِرِ، ولذا قال مَا قَالَ.

وذهب ابْنُ القيِّم إلى أنَّ الحمدَ: هو الإخبارُ عن محاسن المحمودِ مع حُبِّه وإجلاله وتعظيمه، أمَّا المدحُ؛ فهو ذلك الإخبارُ مُجَرَّدًا عن الحُبِّ وتوابعه[5].

وهذا أصحُّ ما قيلَ في الفرقِ بينهما، وبهذا التقريرِ يكونُ المدحُ أَعَمَّ مِنَ الحَمْدِ مطلقًا. واللّٰه أعلَمُ.

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/52.
(2) الكرمانيّ، غرائب التّفسير: 1/96.
(3) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 50.
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 1/191.
(5) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/93.

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الأول

من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة